

ثانياً: التعلق

لقد حظي موضوع التعلق Attachment بالأم - أو بشخص آخر - انتباه العلماء، وقامت الدراسات العديدة حول طبيعته والسن التي يتكون فيه وآثاره وغير ذلك من الجوانب. وقد كانت بداية دراسة هذا الموضوع صدفة حينما كان أحد الباحثين واسمه هارلو Harlow يجرى أبحاثه حول موضوع التعلم، وكان يحضر قرودة حديشي الولادة ويضعها في أقفاص معزولة عن القرودة الأخرى بهدف منعها من التأثر بها. وقد لاحظ بعد عدة أسابيع أنه قد ظهرت على هذه القرودة اضطرابات سلوكية مثل: الانطواء على الجسم لعدد من الساعات، أو دق جدار القفص برؤوسهم بصورة مستمرة، أو عض أيديهم وأرجلهم. هذه الظاهرة دعت هارلو إلى تغيير مسار أبحاثه من موضوع التعلم إلى أثر وجود الأم وأثر الارتباط بها، ومن ثم توالت الدراسات حول هذه الجوانب من قبل عدد من الباحثين.

إن أول سؤال حاول الباحثون الإجابة عليه هو ما الذي يجعل الطفل يرتبط بأمه؟ لقد كان الافتراض السائد آنذاك أن الارتباط بالأم يحدث نتيجة لارتباط الأم بالتغذية، وبما أن التغذية مهمة جداً للطفل، فالطفل إذا سيرتبط بالأم. وقد صُممت تجارب لاختبار صحة هذا الافتراض. فقد قام هارلو بأخذ قرد صغير منذ الولادة ووضعها في قفص وفي هذا القفص نموذج حديدي للأم، ثم وضع مكانا في هذا النموذج يحصل منه القرد على الحليب، وعندما يجوع فإنه يتسلق على هذا النموذج ويحصل على غذائه. وبعد فترة عرض هذا القرد الصغير إلى موقف مخيف إذ أدخل عليه في القفص دمية الدب الصغير الذي يضرب على الطبل (يعمل بالبطارية). فلاحظ هارلو أن القرد يفر من الدب، ويتجه إلى الأم البديلة ويحتضنها. وهذا ما

يؤكد ذلك الافتراض، بعد ذلك أعاد التجربة مع قرد آخر ولكن بدلا من نموذج واحد للأم وضع نموذجين أحدهما حديدي يقدم الغذاء، والآخر مغطى بقماش ذي ملمس ناعم إلا أنه لا يقدم الغذاء، وبعد فترة عرض القرد الصغير للموقف المخيف كما في التجربة الأولى. لقد كانت النتيجة غير متوقعة، لقد توجه القرد إلى الأم ذات الملمس الناعم وترك الأخرى مع أنها تقدم التغذية للطفل، مما لا يؤكد صحة تفسير تكون الارتباط بالأم لارتباطها بالتغذية. فهناك عوامل أخرى غير الغذاء تساهم في تكوين الارتباط.

آراء حول تكون الارتباط

١ - الفترة الحاسمة Critical period

كما تسمى كذلك بالنقش imprinting وهذا الرأي يقضي بأن الساعات الأولى بعد الولادة مباشرة هي الحاسمة لتكوين الارتباط، وإذا لم يتكون الارتباط خلال هذه الفترة فإنه لن يتكون فيما بعد. وبناء على هذا الرأي فإن مجرد احتضان الأم لوليدها بعد الولادة مباشرة سيجعل الطفل يرتبط بأمه.

وقد بنى أصحاب هذا الرأي فكرتهم هذه من بعض الملاحظات على بعض الحيوانات، خصوصا الطيور. ومن ذلك أنه عندما يخرج صغار البط من البيض فإنه سيرتبط بأول شيء متحرك يراه أمامه سواء كان أمه أم طائرا آخر، بل حتى لو لم يكن طائرا كان يكون أرنباً مثلاً، كما في إحدى التجارب حيث تعلق الفراخ بالأرنب وأصبحت تتبعه أينما تحرك. وقد تبين من بعض الدراسات أن هذا الارتباط للبط لا بد وأن يتم خلال اليوم الأول، وإلا فإن البط لن يكون أي ارتباط. وفي مثال آخر وجد أن نوعاً من الطيور عندما يخرج الفرج من البيضة فإنه سيشاهد بقعة حمراء على مؤخرة الأم، فيقوم بالنقر عليها وعندئذ تقوم الأم بتغذيته. وفي إحدى

التجارب غطيت هذه الدائرة قبل خروج الفرخ من البيضة، فتبين أنه إذا لم تكشف إلا بعد مرور ثلاثة أيام، فإن الفرخ لا ينقر على هذه الدائرة.

وقد حاول أصحاب هذا الرأي خصوصا كلوس وكينيل (Klaus & Kennell 1970) التعرف على ذلك عند الإنسان وقارنوا الأطفال الذين حصل بينهم وبين أمهاتهم احتكاك مباشر باحتضانهم بعد الولادة مباشرة بالأطفال الذين لم تحتضنهم أمهاتهم. وقد وجدوا فرقا بين المجموعتين في الأشهر التالية حيث كونت المجموعة الأولى ارتباطا في حين أن الثانية لم تكون ارتباطا. ولكن دراسات أخرى تالية من قبل علماء آخرين لم تجد نفس النتيجة.

إنه رغم تلك الحقائق حول بعض الطيور والحيوانات التي توضح أن هناك فترة معينة قصيرة يتكون فيها الارتباط إلا أن كثيرا من العلماء يرون الحذر في تطبيق ذلك على الإنسان، ويرون بديلا عن ذلك بالفترة الحساسة التي سنتحدث عنها في الفقرة التالية.

٢ - الفترة الحساسة

أصحاب هذا الرأي يرون أن الارتباط لا يتكون خلال ساعات، بل خلال فترة طويلة تمتد عددا من الأشهر يحتاج فيها الطفل إلى تفاعل مستمر وإيجابي مع الأم، أو مع بديل ثابت للأم (غير متغير)، كما ينص هذا الرأي على أن الفترة الحساسة هي الفترة المهمة لتكون الارتباط لأن أسس الارتباط تتكون فيها. إن تجاوز هذه الفترة لا يمنع من تكون الارتباط فيما بعد إلا أنه لن يكون الارتباط الجيد. وهذه الفترة هي تقريبا النصف الأول من السنة الأولى. وقد أيدت هذا الرأي دراسات عديدة بعضها

أجري في مجتمعات غير المجتمع الغربي مثل دراسات إينزورث Ainsworth في أوغندا.

لقد حاول الباحثون التعرف على التفاعلات بين الأم والطفل التي من شأنها المساهمة في تكوين الارتباط فوجدوا منها: الملامسة — ومنها الرضاع والاحتضان —، تبادل النظرات، التحدث مع الطفل حتى لو كان بمجرد أصوات كاهمهمات. قياس التعلق

قامت إينزورث بتصميم إجراء لقياس نوع التعلق عند الأطفال الذين أعمارهم سنة إلى سنتين يعرف باسم "الموقف الغريب". يتم ذلك من خلال ملاحظة الطفل دون أن يشعر غير زجاج عاكس، في غرفة غير مألوفة للطفل، بها بعض الألعاب والمقاعد في خطوات تتضمن دخول الأم والطفل للغرفة، ثم دخول شخص غريب، وترك الطفل مع الغريب ثم عودة الأم ثم ترك الطفل لوحده وهكذا في خطوات مقننة وبعضها يكرر، ولكل زمنها المحدد بثلاث دقائق.

أنماط التعلق

لقد صنفت إينزورث - من خلال دراساتها - الأطفال من حيث نمط تعلقهم إلى ثلاث أنماط، ثم أضيف نمطا رابعا من خلال أبحاث قامت بها إحدى طالباتها في مرحلة الدكتوراه وتلك الأنماط هي:

١ - الارتباط الآمن. secure attachment

ومن أبرز ما يلاحظ على الطفل في هذه الفئة أنه يكون مطمئنا عندما يدخل مع أمه إلى الغرفة، وكذلك عندما يجلس معها على المقعد، كما يقوم الطفل باستكشاف الغرفة، وعندما تريد الأم مغادرة الغرفة وتركه فإنه يعارض ويبكي، وإذا عادت فإنه

يتجه إليها ويحتضنها. فهو يثق بأمه كمركز أمان له. وهذا النمط هو الأكثر حيث تقدر الدراسات نسبته ٦٥-٧٥%

٢ - الارتباط المتردد ambivalent attachment

يلاحظ علي الأطفال من هذا النمط أنهم قلقون عندما يدخلون مع أمهاتهم، ويلتصقون بها عندما تجلس على المقعد، ولا يقومون بمحاولة استكشاف الغرفة، وعندما تريد الأم مغادرة الغرفة وتركه فإنه يبكي بكاء شديدا، أما عندما تعود الأم فالغريب أن هذه الفئة من الأطفال يتجهون إلى الأم الا أنهم يتوقفون قبل الوصول إليها وكأنهم لا يريدون أن تحتضنهم، بل قد يدفع الأم أو يضربها عندما تقترب منه فهم يقاومون التواصل الجسدي مع الأم.، ولا يتوقفون عن البكاء عندما تهدئه.

٣ - المرتبطون ارتباطا تجنبيا avoidantly attached

هذه الفئة لا تبدي أي ارتباط بالأم، فهم يسارعون فور دخولهم إلى الغرفة إلى اللعب بالألعاب، ولا يبالون كثيرا عندما تريد الأم مغادرة الغرفة وتركهم، وإن بكوا فهو لتركهم وحيدين وليس لمغادرة الأم، وردة فعلهم للغريب كردة فعلهم للأم. وعندما تعود الأم لا يبالون كثيرا، وعندما تحملهم أمهاتهم لا يقاومون ولكن لا يظهرون تعلقا.

٤ - المرتبطون ارتباطا غير منتظم disorganized attachment

هؤلاء الأطفال يظهرون تصرفات متناقضة ، وسلوكهم غير منتظم. فهم يدركون الحاجة لشخص بالغ (الأم) لكنهم يخشون منه. وتفيد بعض الدراسات أن هذا يعود لمعاناة واجهها الطفل مع الأم مثل حالات الإهمال أو الإيذاء.

نتائج بعض الدراسات حول التعلق

من طلائع الدراسات وأبرزها الدراسات التي أجراها بولبي Bowlby وفريق بحثه حول موضوع الارتباط وآثاره، فقد طلبت منظمة الصحة العالمية منه إجراء دراسة حول الآثار المترتبة على انفصال الأطفال عن أمهاتهم. وقد أجرى سلسلة من الأبحاث حول هذا الموضوع، كما توالى الدراسات فيما بعد على نفس المسار، ومن أشهرها دراسات إينزورث على الأطفال في أوغندا. وقد خرج الباحثون بمجموعة من النتائج يمكن أن نلخص بعضها منها في النقاط التالية:

١. يمر الأطفال بالمراحل التالية عندما ينفصلون عن أمهاتهم:

(أ) الاحتجاج والبكاء والصراخ والركض في كل اتجاه لمحاولة العثور على الأم.
 (ب) اليأس حيث يظلون يفكرون في الأم دون البحث فيبقى الطفل ساكنا دون أن يلعب بأي شيء لكن يبدو عليه الأسى. ويلاحظ عليهم في هذا الطور أنهم يستشيطنون غضبا إذا ظهر ما يذكرهم بأمهاتهم.

(ج) بعد عدد من الأشهر يبدو على الطفل أنه نسي أمه، ويبدأ في التفاعل مع الآخرين. ولكن هذا السلوك لا يعني أن آثار هذا الانفصال اختفت. فمن الناحية النفسية يلاحظ أن هؤلاء الأطفال يتجنبون تكوين أي ارتباط نفسي جديد (ربما حتى لا يحصل لهم ما حصل من قبل)

أما لو عادت أمهاتهم بعد ذلك فإن الطفل لا يبدي أي اهتمام بها ولا يحاول الذهاب إليها وكأنه نسيها. وإذا كان هذا الانفصال لبضعة أشهر فقط وليس في الفترة الحساسة فإن الأم يمكن أن تعيد العلاقة تدريجيا، وتتلافى آثاره السلبية، أما عندما يكون لفترة طويلة أو خلال الفترة الحساسة فإنه يصعب تلافى آثارها.

- ٢ . التعلق بالأم لا يستمر إذ يبدأ يقل تدريجياً
فقد لوحظ على الأطفال بعد سن الثلاث سنوات أنهم يتقبلون ابتعاد أمهاتهم عنهم
لفترة قصيرة فلا يبكون تدمراً، ويشغلون أنفسهم باللعب.
- ٣ - أن هناك علاقة بين نوعية الارتباط التي كونه الطفل خلال مرحلة المهد وتوافقها
الانفعالي والنفسي في السنوات اللاحقة كما يتضح في الفقرة التالية.

الأثار طويلة المدى للارتباط

لقد قام عدد من الباحثين - في دراسات متفرقة - بتتبع مجموعات من الأطفال
المختلفين في مستوى ارتباطهم، ويمكن أن نستخلص من تلك الدراسات أن الأطفال
المرتبطون ارتباطاً سليماً يكونون أسوياء في علاقتهم مع الآخرين، أكثر صبراً في أداء
أعمالهم وفي حلهم بعض المسائل قبل الالتحاق بالمدرسة وبعدها. بينما يحدث عكس
ذلك للأطفال الذين لم يكونوا ارتباطاً أو كان ارتباطهم من النوع القلق.

ولكن رغم وضوح هذه الأثار، ودور الارتباط في صحة الطفل النفسية فإنه ينبغي أن
نوضح من الناحية العلمية أن مستوى الارتباط ليس راجعاً في دراسات متفرقة إلى
الأم فقط فقد يكون بعض الأطفال ذا صعوبة في التعامل معه منذ الولادة. هذا
الأمر سينعكس على تعامل الأم مع طفلها، كما أن طبيعته النفسية التي تتميز بعسر
التعامل تنعكس على تعامله مع الأطفال الآخرين عندما يكبر. أي أن سوء تعامله
مع الآخرين ليس راجعاً لعدم تكوين الارتباط السوي وإنما استمراراً لطبعه.

جوانب من الحياة اليومية لها علاقة بالارتباط**١ . أسلوب الرعاية في دور رعاية الأطفال**

يسود في المؤسسات التي ترعى الأطفال رعاية كاملة نتيجة لفقد الوالدين، أو الأطفال مجهولي الآباء أسلوبان لتنظيم العمل فيها هما:

(أ) تقسيم المهمات

وهو الأكثر شيوعاً وفيها تخصص مجموعة كبيرة من الأطفال إحدى العائلات في الدار للتغذية وأخرى للنظافة وأخرى للعب إلخ.

(ب) تقسيم الأطفال

في هذا الأسلوب يقسم الأطفال إلى مجموعات صغيرة، ويخصص لها مربية واحدة تقوم بكل شؤونهم من تغذية ونظافة ولعب وغير ذلك.

من المعلومات السابقة حول موضوع الارتباط، أي الأسلوبين أفضل لصحة الطفل النفسية؟ لا شك أن الأسلوب الثاني يساعد على تكون الارتباط الطبيعي مع المربية الذي هو ضروري لصحة هؤلاء الأطفال النفسية. ولكن حتى يؤدي هذا الأسلوب هدفه لابد أن يكون هناك استقرار على من يقوم على رعاية كل مجموعة، فلا ينبغي تغيير المسؤولة عن الطفل بين الحين والآخر.

٢ . رعاية الطفل من قبل أشخاص غير الأم

المجال الآخر الذي لموضوع الارتباط أهمية كبرى فيه هو إسناد رعاية الطفل إلى أفراد آخرين، خصوصاً الخدم أو ما يسمى أحياناً بالمربيات. إن الاعتقاد الشائع عند كثير من الأمهات أن الطفل في الأشهر الأولى لا يعي ما يدور حوله، وبالتالي يقلل من أهمية الشهور الأولى في صحة الطفل النفسية فيحيلون رعاية الطفل إلى الخادمة أو المربية، وهم لا يعلمون أن الأشهر الأولى في غاية الأهمية لتكون الارتباط. إن الأم

بالنسبة للطفل من الناحية النفسية هي التي كون بها الارتباط فلا معنى لدى الطفل ولا تأثير لكون أمه ولدته. فليس صحيحا ما تصوره بعض الأفلام والقصص حول تعرف الطفل وحنينه لأمه التي فقدتها بعد الولادة مباشرة عندما يشاهدها بعد سنوات. إنه لمن المآسي التي تحدث ونشاهدها على الواقع ما يحدث عندما تغادر تلك الخادمة التي كون الطفل الارتباط بها. فمغادرتها من الناحية النفسية هو في الواقع ك وفاة أمه.

ويتصل بهذا الموضوع نوعية عدد الساعات التي تمضيها الأم مع طفلها وتفاعلها معه، فكما أن عدد الساعات مهم، فإن نوعية التفاعل مهم أيضا، فرعاية الطفل، واحتضانه، وتقبيله، ومداعبته، والتحدث معه من شأنه أن يؤسس ويقوي الرابطة بين الطفل وأمه ويجعله أكثر اطمئنانا. إن تفرغ الأم لرعاية أطفالها منذ ولادتهم قد أخذ اهتماما من النساء في الغرب — للأسف الشديد — أكثر من النساء في العالم العربي والإسلامي. إننا نجد أن كثيرا من النساء في المجتمعات الغربية يتوقفن عن العمل بعد الولادة عددا من السنوات إلى أن يصل أطفالهن إلى سن الثالثة أو الرابعة من العمر إذ يلتحقون عندئذ بالروضة أو التمهيدي.

قد تبرر بعض النساء العاملات خارج المنزل في مجتمعاتنا أن المسألة هي ساعات محدودة تنفصل فيها عن أبنائها، فهي تذهب وهم نائمون وتعود بعد استيقاظهم بساعات قليلة. ولكن هذا الكلام نجده في كثير من الحالات، بل في أغلب الحالات، لا يطابق الواقع إذ نجد أن الأطفال يستيقظون مبكرين، لأن والديهم حريصان على نومهم المبكر حتى يستريحوا من إزعاجهم، وعندما تعود الأم فإنها تأخذ قسطا من النوم، وفي المساء قد تذهب الأم إلى زيارات أو تسوق ولا تأخذ أطفالها معها. فعندما

تحسب الساعات التي قضتها مع أطفالها تجدها ساعات محدودة للغاية. لقد بينت بعض الدراسات أن قلة الساعات التي تضيئها الأم مع أطفالها لا تنحصر آثارها على ما ذكر، بل ينعكس على مدى تقبل الأم لأطفالها وتحملها إياهم، لأنها اعتادت البعد عنهم. وهذا سينعكس لا شعوريا في محاولة التهرب منهم بشتى الطرق مثل الذهاب للمناسبات الاجتماعية أو الزيارات دون الأطفال، أو تنويمهم مبكرا، وربما بتبكير إلحاقهم بالروضة.

ومن المسلمات في هذا المجال أن الجانب المادي لا يمكن أن يعوض الجانب النفسي، فشراء الألعاب الثمينة، أو الملابس الفاخرة، أو الحلوى لا يمكن أن يعوض الحنان والرعاية التي يحتاجها الطفل.

ثالثا: أحداث لها أهمية في مرحلة المهد

هناك بعض الأحداث التي يمر بها جميع الأطفال في مرحلة المهد أو قريبا منها قد يكون لها أثر في الطفل وصحته النفسية، هذه الآثار قد يستمر بعضها إلى مراحل تالية. إلا أن مدى تأثير الطفل بها نفسيا يعتمد على الأسلوب الذي نتعامل به مع الطفل في وقتها، وسنتحدث هنا عن حدثين هما الفطام والتدريب على الحمام.

الفطام.

يعد الفطام حدثا هاما في حياة الطفل لسببين: لأنه سيقطع عنه أمرا محببا لنفسه، ولأنه في نفس الوقت سينقطع عن مجموعة من العادات التي اعتادها. لقد ساد في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الرأي الذي يعزو أهمية الفطام لأمر جنسية كما تقرها مدرسة التحليل النفسي الفرويدي إلا أنه كان رأيا خاطئا لم يقم على دراسات علمية.